

سياق النص

يُمَتَّح المحكي غالباً من التاريخ الاجتماعي كما يمتاح من الواقع أو المتخيل لحظات تستحق التسجيل وتستوقف الروائي لينبش في تفاصيلها وابعادها نيشاً يعيد صياغته بادواته الفنية، فتخرج محكياً جميلاً ومؤثراً يزخر بالرؤى والتداعيات والصور والسجلات وأنماط من الثقافة والسلوك والتعبير والمواقف والرسائل تغري المتلقي وتدفعه إلى عالم المحكي قارناً مشدوها متأملاً ومتفاعلاً.

هذا ما فعله أحمد التوفيق الروائي والمؤرخ المغربي المولود في مراكش سنة 1943، المتقلب في كراسي الجامعات والإدارة المغربية آخرها وزارة الأوقاف حين عمدا إلى ماضي المجتمع المغربي المترع بالأحداث والقيم والوقائع يعيد تشكيله برؤية فنية متميزة في رواياته التي منها (جارات أبي موسى) ومنها هذا النص.

ملاحظة النص

العبارات الأولى في النص كلها تشير إلى أن النص سردي يستمد موضوعه من التاريخ السلطاني لدولة المخزن المغربية في نهاية العصر الوسيط، من ذلك حدث وصول الخبير إلى دار ابن الحفيد قاضي قضاة سلا، ووصف عام لفضاء المدينة يوم الجمعة، هكذا تشكل هذه العناصر الحكائية المرتبطة في بداية المحكي إعلاناً صريحاً لجنس النص وابعاده الاجتماعية والتاريخية البارزة.

العنوان مركب إضافي يحيل فيه المضاف “حفل” على عوالم المرح والابتهاج والزينة والفرجة ويحيل المضاف إليه “استقبال” إلى مناخ التبريل والتشريف والتعظيم والبروتوكول وكثير من البهرجة والمجاملة بحسب من منزلة المستقبل وموقعه في المجتمع وفي نفوس مستقبله، وبالنظر إلى العلاقة بين طرفي التركيب الإضافي فإن حدث الاستقبال سيشكل بؤرة المحكي في النص، وسيكون العنصر المؤثر في باقي الأحداث المرتبطة به، خاصة إذا علمنا أن الشخصية موضوع الاستقبال مبعوثاً سلطانياً، وأن الشخصية منفذة الاستقبال ذات وزن كبير في هرم الدولة المخزنية؛ لذلك نفترض أن يدور الحكي حول بروتوكول الاستقبال والاستضافة.

فهم النص

يتم فصل النص إلى جملة الوحدات السردية الآتية:

- 1) وصول الخبير رسول الجوراني قاضي القضاة ومشاور السلطان إلى مدينة سلا يوم الجمعة قادماً من تامسنا إلى دار ابن الحفيد قاضي قضاة سلا لإخباره بنزول موكب المستشار السلطاني ضيفاً عليه قبل أن يتوجه إلى فاس حاضرة السلطان.
- 2) إعداد ابن الحفيد الترتيبات اللازمة لاستقبال ممثل السلطان بما يليق بمكانته وبما يجعل ابن الحفيد أهلاً للتشريف والتعظيم الذي خص به من دون عامل المدينة ومن ضمن هذه الترتيبات:
 - تكليف القاضي زوجته طميمة بتدبير ضيافة المبعوث السلطاني لانتمائها إلى دار كبيرة لها استثناس بمثل هذه المناسبات، ولخبرتها ومهارتها في إدارة شؤون ضيافة الكبار بما تقتضيه الأعراف والتقاليد العريقة وأصول الخدمة الراقية.
 - إخبار العامل جرمون بخبر قدوم ممثل السلطان وحاشيته ونزولهم عند القاضي وما يستلزم ذلك من تهئية للاستقبال بحشد خاصة النص وعامتهم وتوفير وسائل الزينة والترفيه وتحضير الموكب المستقبل للوفاد الكبير
- 3) خروج المرحبين بالقاضي والعامل، ووقوف الأعيان والعلماء والأدباء والتجار وأهل الشرف والصلاح وغيرهم من الخاصة كل في مكانه لانتظار وصول موكب الجوراني عند ضفة نهر أبي رقرق.
- 4) عبور موكب الجوراني النهر عند مغرب الشمس في فلكة عظيمة احاطت بها زوارق مزينة تكشف عن بالغ الحفاوة بالضيف المرموق.
- 5) تقدم الموكب العام إلى المدينة مع صلاة العشاء وسط حشود المستقبلين.

تحليل النص

النص جزء من محكي طويل هو رواية "جارات ابي موسى" يركز على حدث الاستقبال الذي خص به المبعوث المخزني من طرف قضاء سلا وعمالها، ولذلك سنركز تحليلنا لعناصر البنية السردية الموظفة في النص على ما يكشف على دور هذه العناصر في تشكيل هذا الحدث وتفعيله، ومن ضمنها:

بنية الحدث

تتشكل من متواليات من الافعال تحدد نمط المجتمع من حيث هيكله السياسي والثقافي والاجتماعي، فرجالات الدولة المخزنية يتنافسون في التقرب الى السلطان ومستشاريه بكل الوسائل، ويحشدون لذلك كل الموارد وكل اصناف البهارج، والحاكم نفسه يحتاج الى ذلك لتثبيت هيئته وتعزيز ولاء الرعية، فيضيف الى مظاهر الاحتفال والتبجيل استعراضا للقوة من خلال مرافقة قائدمن قواد عساكر السلطان للمبعوث، والناس عامتهم وخاصتهم مبهجون بالقدوم المخزني يجدون فيه متسعا للاحتفال والاعلان عن الانسجام والتناغم بين طبقات المجتمع بما يشكل ثقافة يغذيها انصهار العلم والادب والدين والنسب والمال والحرف في خدمة الدولة المخزنية التي تكافئ مواليتها وتقمع كل تمرد حفاظ على استقرار الازواضع واستمرار الدولة.

كل هذه الوظائف التي تضطلع بها الوحدات الحكائية الصغرى المرتبطة بحدث الاستقبال تشي بنوع من الحكي يستثير الذاكرة المغربية، ويمد جسور التواصل المتعدد بين مكونات الماضي والحاضر بما يجذر الفعل السياسي والثقافي والاجتماعي المغربي المتطلع الى تحديث شكلي محتشم يحافظ على استمرار انساق السلطة المتواترة. والملاحظ أن بنية الحدث خبرية جافة غير دسمة تختزل فيها افعال الشخصيات في تنفيذ التعليمات مما يجعل المحكي في هذا النص شبيها بالجرد التاريخي.

بنية الزمن

تحكم النص بنية زمنية ماضية مرتبطة بحدث يستقي وقائعه من التاريخ، وهي بنية بسيطة مقترنة بالاخبار ونسق الزمن في النص خطي تسلسلي يبدأ بوصول الخبير الى سلا، وينتهي بتقدم الموكب الى وسط المدينة، تتخلله استرجاعات بسيطة لا تتجاوز كونها ومضات تشرق داخل ذاكرة الرواي، ولها وظيفة تفسيرية في الغالب كالتنصيص على ان طميمة بنت قاضي سلجماسة، او ان جرمون خان قبيلته المتمردة وجر عليها هزيمة نكراء كانت سببا في تعيينه عاملا على مدينة سلا. ويتميز زمن السرد في النص بالاختزال عموما، حيث يتم التركيز على زمن وصول الخبير، وزمن الاستقبال، وتهمل باقي اللحظات، ويفسح المجال امام وصف الشخصيات والفضاء حيث يتوقف الزمن قليلا. اما الزمن النحوي فيتأرجح بين الماضي والحاضر والمستقبل، الماضي للسرد والمضارع منفي او مقترنا بالسين ولام التعليل لتوسيم الشخصية المتنافسة على ما تفعله او ستفعله بخصوص ابراز قدراتها في ترتيب استقبال بهيج للضيف الكبير، وتعمل المؤشرات الزمنية الاخرى على مزيد من التاطير الواقعي للحدث (الجمعة مغرب الشمس صلاة العشاء ...).

بنية المكان

المكان في النص متعدد رغم كونه منحصر ا بكل ابعاده في فضاء الاستقبال والاستضافة لا يتجاوزه إلا في أفق إخبار محدود عن مكان بداية السفر ونهايته، وهو مكان مشحون بالحمولات التاريخية والجغرافية الواقعية (بلاد تامسنا – فاس حاضرة السلطان – نهر ابي رقراق – مدينة سلا – باب المريسة – دار قاضي القضاة – سلجماسة مدينة التجارة القائمة على تير السودان...)، وجل الامكنة في النص مؤنثة بمؤنثات تثري الدلالة التاريخية والاجتماعية والثقافية للمحكي (اعلام ترفرف على الصوامع – حراس باب المريسة – دكة ظليلة – المدخل الاول لرياض القاضي – الماء البارد وبعض القرى – اخبار فاس وتامسنا – دار العيال – القبة الصغيرة بالمدخل الثالث – الحشود المستقبلة – الفلك الصغيرة المزينة...).

وطالما ان الفضاء فضاء الحفل والابتهاج والفرجة فانه يبدو حميميا للشخصيات الرئيسية في النص رغم انه لا يخلو من تنافر وتحاسد بين ابن الحفيد والعامل جرمون؛ مما يضيف على دلالاته غموضا يجعله فضاء للبهجة من جهة، والمجاملة والنفاق والمنافسة على النفوذ والسلطة والظهور من جهة اخرى.

بنية الشخصيات

- الشخصية الرئيسية في النص هي الشخصية التي تنفذ الحدث (حدث الاستقبال والاستضافة) وتنتشر انتشارا واسعا على طول الممتد الحكائي، وهي شخصية القاضي ابن الحفيد، ومن سماتها انها متزنة، لها وزن كبير في هرم السلطة، من خاصة الخاصة، لها دار كبيرة بمداخل كثيرة، وخدم واتباع متزوج من اكثر من واحدة، وله ولد نابغ في الشعر والفروسية، تعيش في بدخ ورفاهية وتتمتع، بقدر كبير من السلطة تثير الكثير من الحق لدى عامل السلطان على المدينة.
- العامل جرمون: شخصية لها حضور قوي في النص، تمثل سلطة المخزن في ادارة شؤون المدينة ومراقفها مستعينة بكثير من الاعوان والمقدمين والشيوخ، شخصية انتهازية تطمح الى المزيد من السلطة، منعوتة بخيانة القبيلة وممقوتة من لدن القاضي ابن الحفيد، يطغى على نفسيته الحسد والشراسة في المنافسة على التمتع في سلم السلطة، مهتمة بالاستقبال مصررة على تفويت شرف التنظيم على القاضي.
- المبعوث السلطاني ابن الجورائي، مشاور السلطان، ممثل السياسة المخزنية العامة، يطوف في البلاد يستقصي اخبارها – موضوع حفل الاستقبال في مدينة سلا، قاضي قضاة المخزن، ضيف ابن الحفيد.
- باقي الشخصيات ثانوية كالخبير وطمية، او عرضية عابرة كالحراس ومرافقي ابن الجورائي والشخصيات المستقبلية.

وإذا امعنا النظر في وظائف الشخصيات باعتبارها عوامل وجدناها لا تخرج عن كونها مساعدة للشخصية الرئيسية كابن الجورائي وطمية، او معاكسة لها كالعامل جرمون، ولا يطرأ في الغالب اي تحول على وظائفها، على الأقل في هذا النص الذي نحن بصدد، مما يجعلها شخصيات جاهزة ومسطحة ينمو الحدث بجوارها بينما تحافظ على معظم سماتها داخل سيرورته، وهذا ما يطبع المحكي التاريخي السلطاني بشكل عام باعتباره محكوما بانماط من السلوك الصارم والبروتوكول الثابت الذي يصنع نوعا من الوعي الجاهز الذي لا تخرقه سوى اشكال التنافس والديناميات التي تسم فضات السياسة لدى خاصة الحاكم، وتشكل جملة الدوافع التي تحرك المشاركين في الحدث.

بنية السرد

يروى الحكاية في النص سارد متمظهر بضمير الغائب، متخذ وضعية السارد المتخفي المحايد الذي يتابع الحدث بتجرد وموضوعية، ويصف الشخصيات والفضات وصفا واقعيا في الغالب مركزا على الدوافع النفسية التي تجعل الشخصية تقدم على فعل ما، او القيمة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تؤثت فضاء معين بمؤثرات ترمز اليها.

والسارد يقود رؤية مصاحبة في الغالب، يتابع الشخصية، ويعرض افعالها، ويكشف عما تعلن عنه من دواخلها، لا يتحكم في مجرى الحدث، ويقتصر دوره على نقل الخبر ووصف الواقع.

القراءة التركيبية

يقدم النص صورة عن مغرب الامس، وعبرها رسالة الى المتلقي تستتصر خطابا سياسيا مفاده ان الدولة الخزنية والشعب المغربي عاشا في توافق وانسجام وتراض ضمن ثقافة الولاء من قبل العامة، ومراعاة مصالح الناس تبعوا لوائهم وخدمتهم من قبل السلطان واعوانه. وهذه الصورة معروضة في قالب سردي تتسم عناصره بالاختزال وهيمنة الوصف والدلالة الاحتفالية وجاهزية الشخصيات وتعدد دلالة المكان والزمن وصرامة اللغة التاريخية الدقيقة الحبل بمصطلحات التاريخ والجغرافيا ومعجم السياسة والمجتمع والادب وبعض التعابير التراثية الجزلة.